

مختارات ابن عزيم الأندلسي

مصدر مهمّ جديد من مصادر الشعر الأندلسي

د. أحمد عبد القادر صلاحية

ثمّة قضية لافتة للنظر في أمر قسم من المصادر الأندلسية المتأخّرة زمنياً ألا وهي العثور على مخطوطات أندلسية لمؤلّفين أندلسيين لا نجد لهم ذكراً في المصادر الأندلسية المتوافرة بين أيدينا، لأسباب كثيرة أهمّها ضياع عدد كبير من المصادر الأندلسية وإتلافها، ولك أن تتخيّل معي معنى إحراق الإسبائين مليون ونصف كتاب عربيّ في اليوم التالي لسقوط غرناطة^(١)، فإنّ كبريات المكتبات الحديثة في الوطن العربي لا تحتوي على نصف هذا العدد الهائل من الكتب.

من تلك الكتب التي وصلت إلينا ولا نعرف عن أصحابها إلا أسماءهم كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، وحلية الفرسان وشعار الشجعان، وعين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعليّ

(١) انظر كتاب: التنصير القسري لمسلمي الأندلس - تأليف د. محمد عبده حتاملة -

الجامعة الأردنية - عمان - ط ١ - ١٩٨٠/ص ٦٠ (اعتماداً على كتاب:

Francisco - piferrer - Nobiliario de los rienosy
Senorios de Espana.

Tomo. Vi- Madrid - ١٨٦٠- pag: ١٣٨.

بن هذيل، وديوان شعر القيسيّ البسطيّ، ومختارات ابن عزم الأندلسيّ التي أتوقّف عندها في هذا التعريف.

مؤلف هذه المختارات هو أحد رجال الأندلس في القرن الثامن الهجريّ الذين لم يأخذوا حظّهم من الشهرة فنسيتهم المصادر الأندلسيّة التي وصلت إلينا، وإنّ كتابه هذا يلقي بعض الأضواء على حياته، وهذا الأمر لا يقتصر على الأندلسيّين فحسب، فهناك عدد من المؤلّفين المشرقيّين عرفوا بكتبهم، ولم يعرف شيء ذو بال عن حياتهم من مثل ابن عَزْزِ السجستانيّ الذي شهر بكتابه غريب القرآن على حروف المعجم [وقد كان لي شرف تحقيقه، وقد طبع في دار طلاس - دمشق - ١٩٩٣].

ذكر المؤلّف اسمه مختصراً في مقدّمة مختاراته المختصرة، وهو عليّ بن عزم، ولاندرى هل عزم هو أبوه أم جدّه أم أحد أجداده ينسب إليه.

ومن البديهيّ أنّه عاش في مملكة غرناطة إذ اقتضت حدود الدولة الإسلاميّة في الأندلس في القرن الثامن على مملكة غرناطة، بل عاش في مدينة غرناطة ذاتها لاتّصاله بملوكها؛ ففي مقدّمة مختاراته يشير إلى خدمته لملكين من ملوك بني الأحمر هما محمّد الغنيّ بالله حكم مرتين (٧٥٥-٧٦٠هـ)، (٧٦٣-٧٩٣) وابنه أبو الحجاج يوسف^(٢)، الذي حكم (٧٩٣-٧٩٤هـ) إذ

(٢) من المشهور في بعض كتب التاريخ كالأستقصا في أخبار المغرب الأقصى لأبي العباس الناصر أن يوسف الثاني قد حكم بين سنتي (٧٩٣-٧٩٧) حتى أثبت الأستاذ الترغي في بحثه أنه حكم ما بين (٧٩٣-٧٩٤) - انظر مجلة كلية الآداب بتطوان العدد الأول ص ٤٤.

يقول بعد حمدلة الكتاب: «ونستوهب من الله العظيم صلة النصر والتأييد لمولانا السلطان أبي الحجاج ابن مولانا السلطان الغني بالله أبي عبد الله... فإنَّ عبده وعبد سلفه الكريم عليّ بن عزم مسترقّ إنعامه وإحسانه العميم» [ص ٢٣].

ويكرّر صفة العبوديّة غير مرّة في مقدّمة كتابه ممّا قد يدلّ على أنّه يعمل في أحد دواوين المملكة، ويشي . أيضاً . بمقدار ما وصلت إليه الكتابة من التكلف اللفظي والتزلف المقيت إلى الملوك ممّا لا نجد له مثيلاً في القرون السالفة، يقول: «فألفها العبد بهذا السفر، وطالع به مقام مولاه الذي خصّه الله تعالى بالنصر وحباه، وإن كانت العلوم والآداب على اختلافها وشيّي أصنافها قد جمعها الله سبحانه لدى مقامه الكريم المخصوص من العوارف الربانيّة بالتحريف والتعظيم، فإنّ مملوك إنعامه يؤمّل حلمه الذي اعتاده بالقبول، ويتمثّل بقول الشاعر في تأليفه حيث يقول:

على العبد حقّ وهو لا شك فاعلُهُ وإن عظم المولى وجلّت فضائله
ألم ترنا نهدى إلى الله مألُهُ وإن كان عنه ذا غنى فهو قابلة

[ص ٢٣ . ٢٤]

وعلى أيّة حال، إنّ «مقدّمته لهذه المختارات وتعليقاته القليلة، وذوقه في اختيار المقطوعات تسفر عن مشاركته في مجال الأدب، [و] ترفع من مقام صاحبها ولكنها لا تضعه في مصافّ أعلام القرن الثامن المشاهير» [ص ١١] كما يقول محقّق الكتاب الأستاذ عبد الحميد الهرامة.

إنّ الكتاب^(٣)، مجموعة متوسطة من المقطوعات الشعرية المنتقاة، لا نعرف عنونها بالتحديد إذ لم يرد في المخطوطة، وقد سماها محقق الكتاب بالمختارات أو مختارات ابن عزيم الأندلسي، وهو عنوان موقّ يدلّ على فحوى الكتاب.

قدّمها ابن عزيم إلى السلطان أبي الحجاج ابن السلطان الغني بالله، وقد حكم أبو الحجاج هذا بين سنتي (٧٩٣ - ٧٩٤ هـ) أي إن زمن تأليف هذه المختارات هو بين هاتين السنتين.

وجعلها المؤلّف في خمسة أبواب، المدح، والغزل، والوصف، والرثاء، والحكم والزهد، ويتقاسم هذه المختارات القدامى والمعاصرون له من الأندلسيين والمشرقيين، وإن كان للأندلسيين عامّة ولشعراء عصره خاصّة القسط الأوفر، كما كان إيراده للمنتهي يفوق سائر شعراء مختاراته مفردين، وتميل مقطوعاته إلى القصر والإيجاز، وكان يجمع بعض مقطوعاته من أجزاء مختلفة من القصيدة بإشارة يسيرة أو من دون إشارة.

وهذه المختارات هي من المجموعات الشعرية المحضّة، تكاد تخلو من النصوص الثرية والتعليقات النقدية خلا مواضع قليلة كأن يصف بعض المقطوعات الشعرية بالحسن أو بالطول، وينعت ذلك الشاعر بالتقدم أو بالبراعة، ونادراً ما يشير إلى المحسنات البديعية التي تحتويها.

(٣) تقع المخطوطة في ثلاث وعشرين ورقة ضمن مجموع في مكتبة ليدن بهولاندة يحمل الرقم ٣٠ (٣) ويقع الكتاب (١٠٧) ورقة من القطع المتوسط: المقدمة من ٢١-٩ النص المحقق من ٨٩-٢٣ والمصادر والمراجع والفهارس من ١٠٧-٩١.

وتدلّ المختارات على ذوق صاحبها الرفيع وحسن انتقائه وتنسيقه لها، ودقته في نسبة الأشعار إلى أصحابها خلا مواضع يسيرة، وتحتوي المختارات على أشعار لبعض المغمورين أمثال مهلهل الدميّ والتجانيّ، ومن شعر الأخير: [ص ٤١].

ولامت على أيّ شهرت بحبها وقالت أحاديث الهوى من أشعها
تعاتب ليلي والذنوب ذنوبها كذا مذ عرفناها عرفنا طباعها
لي العتب والعتبي لها لم أرسلت بأخبار وجدي مدمعي فأطاعها
فيا عجباً منها ترى الجور مذهباً وترضى به رأياً وترضى اتباعها

كما تضمّ أشعاراً غير منشورة لشعراء من أصحاب الدواوين كابن خاتمة وابن الخطيب، ومن ذلك قول ابن خاتمة: [ص ٣٠].

هو مورد للمعتفين وغلة في صدر من ناواه ليست تنقع
ينجاب سحف النقع منه في الوغى والطعن يخطب والمقاتل تسمع
عن طلعة كالشمس منها أشرقت فالرمح يسجد والصوارم تركع

وتعدّ كذلك المصدر الأوفى لبعض الشعراء من أمثال ابن كسرى إذ تحتوي على أغلب ما يعرف له، ومن شعره: [ص ٧١]

فالروض مسكيّ النسيم مدبّج والماء فضيّ الأدم صقيل
والبرق ييسم والسحاب عوايس والريح يجري دمعها فيسيل
سكرى تمّادى كالبهير تماماً فسجت لها وجه الصعيد ذبول
تستّ من مقل الغوادي دمعها في صحن خدّ الترب فهو بليل

وهذه المختارات هي الكتاب الأول الذي وصل إلينا من كتب المختارات الشعرية المحضة في هذا العصر، وزيادة على ذلك فقد انفردت بإيراد أشعار لم ترد في غيرها من المصادر الأندلسية.

معيار الاختيار في هذه المختارات هو البيان المغرب والإبداع والاختراع والمرقص والمطرب، وهو ما فات المحقق الفاضل توضيحه، وعذره في ذلك أنه تقدم موجز وذلك كما يقول المحقق «مجال دراسة متأنية لمواد المخطوطة تضيق عنها هذه المقدمة الموجزة» [ص ١٣]، يقول ابن عزيم: «وها هي المقطوعات تسفر عن بيانها المغرب، وتأتي من أنواع البديع بكل مرقص ومطرب، تألفت في خمسة أبواب: الأول منها في المدح وضروب أنواعه، والثاني في التعزّل ورقة اختراعه، والثالث في الوصف وطلاوة إبداعه، والرابع في الرثاء بشجية إيقاعه، والخامس في الحكم والزهد وأتباعه» [ص ٢٤].

وهذه المعايير هي مفاهيم أندلسية متفرقة صقلها مصطلحات ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) في كتابه «عنوان المرقصات والمطربات» وفيه وضع أسس نظرية اختياراته القائمة على الإبداع والاختراع، يقول: «الطبقات التي بني الجامع المذكور على الكلام فيها خمس؛ المرقص والمطرب، والمقبول والمسموع والمتروك، فالمرقص ما كان مخترعاً أو مولداً يكاد يلحق بطبقة الاختراع لما يوجد فيه من السر الذي يمكن أزيمة القلب من يديه، ويلقي منها محبة عليه، وذلك راجع إلى الذوق والحس، مغني بالإشارة عن العبارة... والمطرب: ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع إلا أن فيه مسحة من الابتداء...» [ص ٧ - ٨] ويستعمل ابن سعيد بعض هذه المصطلحات في

كتابه الآخر «المقتطف من أزاهر الطرف» [ص ٩٣] وهي برهان على مدى ما وصل إليه النقد العربي في الأندلس من تطوّر، وبذلك يكشف عن مصدر تلك المقاييس النقدية الرائعة التي استقاها ابن عزم في مختاراته، والتي تدلّ على ترسخها واستمرار العمل بها في القرن الثامن الهجري في الأندلس.

أما محقق الكتاب فهو الأستاذ عبد الحميد عبد الله الهرامة، وقد سبق أن صدرت له دراسة رصينة عن الشاعر الأندلسي «الأعمى التطيلي . حياته وشعره» هي أطروحته للماجستير، كما حقق آثار أبي زيد الفازري الشعرية والنثرية، وأشرف على تحقيق نيل الابتهاج لأبي الثناء التنبكي، ومعنى هذا أن الباحث المحقق . وهو من الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ولا أعرفه شخصياً . ممن لهم يد في مجال الدراسات الأندلسية وأنه أحد المهتمين والمختصين بالتراث الأندلسي والمغربي.

وقد قام الباحث بنفض غبار النسيان عن مصنف أندلسي أهملته المصادر الأندلسية، وعن مصنف أندلسي جديد فريد من نوعه في عصره يزيد من غنى المكتبة الأندلسية التي تتنامى يوماً بعد يوم.

نهد الباحث لتحقيق هذه المختارات المهمة على مخطوطة واحدة يتيمة لم يجد المحقق لها أصلاً ثانياً بعد طول بحث، وهي تقع في خمس وأربعين صفحة، مكتوبة بخط أندلسي واضح بيد أنه لا يخلو من التصحيف والخطأ أحياناً. ومن المعروف أنّ ثمة خطورة في تحقيق المخطوطات على أصل واحد، ولكن يُلجأ إلى ذلك في المخطوطات الفاتمة الأهمية، العديمة النظير، لذلك كان العمل أشدّ صعوبة، استوجب منه الاعتماد على عدد من المصادر

المخطوطة والمطبوعة «استكمالاً لنواقصها وتصحيحاً لأخطائها وتصحيقاتها» [ص ١٥] التي أشار إليها في أماكنها من هوامش النصّ، وهنا يبرز دقة المحقق وتوثيقه وخبرته في قراءة المخطوطة ومعرفته بمصادره، كما قام بتحقيق المتن على أسس التحقيق العلميّة، فترجم للشعراء وللأعلام، وخرّج ما استطاع تخريجه من مقطوعات شعريّة، وأحال إلى دواوين أصحابها أو كتب الأدب، وأشار إلى اختلاف الروايات كما لم يأل جهداً في معرفة أصحاب الشعر ممن لم يذكرهم المؤلّف وشرح غرائب اللفظ وأصلح كثيراً مما اختلّ وزنه بسبب التصحيف والتحريف، وكذلك سائر الأخطاء واقترح قراءات موفقة، زيادة على ذلك كلّه فالباحث يتحلّى بأمانة علميّة . وما أجملها من حلية . يتبدّى ذلك في إحدى حواشي كتابه إذ يحدّد مدّة حكم السلطان أبي الحجاج يوسف، فيقول: «كان السائد في المراجع التاريخيّة أنّ تولية يوسف الثاني دامت ما بين ٧٩٣ و ٧٩٧ حتى أثبت الأستاذ الترغي في بحث طريف أنّه حكم ما بين صفر ٧٩٣ وذو الحجة ٧٩٤، وأنّ الفترة التالية كانت لحكم يوسف الثالث» [ص ١٣]، وذيل الكتاب بفهارس فنيّة ضروريّة للأعلام والقوافي والمحتويات.

وثمة عدد من الملاحظات صادفتني في القسم الثاني، وهو تحقيق الكتاب، أذكر أهمّها؛ فمما يتعلّق بمنهج التحقيق أنّ الباحث لم يشر إلى أرقام صفحات المخطوط في الكتاب المطبوع، وأنّه قد يترجم للشاعر مرّتين في حواشي الكتاب مثل كلّ من الشعراء: الحلبيّ [ص ٤٤ . ٥٣]، والساحليّ [ص ٢٨ . ٥٨] والرنديّ [ص ٤١ . ٦٥]، وأنّه قد يترجم للشعراء والأعلام ثمّ يذكر مصادر ترجمتهم كأبي الحجاج يوسف [ص ٢٣] وابن الحاجّ النميريّ [ص ٢٥]، وقد يكتفي بذكر مصادر ترجمة بعضهم الآخر كالأسعد إبراهيم بن

بَلِّغْهُ، وإدريس بن اليمان [ص٥٩]. كما أنه لا يقيد بالشكل هؤلاء الأعلام.

وفيما يتعلّق بإحالات التخريج فهو يخرج الأشعار على دواوين أصحابها، ولكنّه قد فاته معرفة وجود دواوين لبعض الشعراء كأبي حيّان فلم يخرج أشعاره عليه [ص٤٢] مع أنّ الديوان قد طبع مرّتين الأولى «من شعره جمع د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي . مطبعة العاني . بغداد . ١٩٦٦»، والثانية بعد العثور على مخطوطة ديوانه حيث قام الباحثان السابقان بتحقيق الديوان وضمّ مجموع شعره المستخرج من المصادر وطبع في بغداد سنة ١٩٦٩.

وكذلك ابن مرج الكحل ص ٦٨ الذي طبع شعره أربع مرّات:

الأولى : جمع د. فوزي سعد عيسى . منشأة المعارف . الإسكندرية . ١٩٧٩.

والثانية: جمع نجم عبد علي . مجلة المورد . بغداد . ١٩٨٩ . مجلد ١٨ . العدد الأوّل.

والثالثة: جمع د. صلاح جزّار . دار البشير . عمّان . ط ١ . ١٩٩٣ .

والرابعة: جمع مصطفى الغديري . مجلة دراسات أندلسية . تونس .

١٩٩٣ . العددان التاسع والعاشر.

فضلاً عن اعتماد طبعات معيّنة من الدواوين مع وجود طبعات أفضل أو أكمل منها كاعتماده على ديوان «الصيّب والجهام والماضي والكهام تحقيق محمد الشريف قاهر . الشركة الوطنية للنشر . الجزائر . ط ١ . ١٩٧٣» ولم يرجع

إلى «ديوانه . صنعه وحققه د. محمد مفتاح . دار الثقافة . الدار البيضاء . ط ١ .
١٩٨٩».

وكذلك أحال على بعض المؤلفات المخطوطة . وهو أمر يحمد له . ومن
بينها مخطوطة «مزاين القصر ومحاسن العصر في مدح أمير المسلمين أبي عبد الله
بن نصر» لابن الحاجّ النميريّ الغرناطي . مكتبة ابريتش . انكلترا . ٥٦٧٠ . [وقد
حصلت على نسخة منها] بيد أنّه ذكره حيثما ذكره باسم قرائن القصر كما
ذكره من قبل د. محمد ابن شقرون في مقدمة تحقيقه لكتاب «فيض العباب
وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب» لابن الحاجّ
النميريّ نقلاً عن المستشرق ج.ف. هوبكينس، كما ورد ذكره خطأ مرتين
باسم قلائد القصر ص ٥٥ .

وأقف أيضاً عند تعليقاته، وهي مهمّة ذات قيمة غير أنّ التوفيق قد
جانبه في عدد قليل منها، فقد ذكر أنّ مقطوعة شعريّة لابن درّاج وهي:
قالت وقد مزج الوداع مدامعاً بمدامع وترائباً بترائب
أتفرّق حتىّ بمنزل غربة كم نحن للأيام نهبه ناهب

وقد أوردها ابن عزيم في مختاراته [ص ٤١] . غير موجودة في ديوان ابن
درّاج؛ مع أنّها موجودة فيه [ص ٩٠]، وكان في المقدمة قد ذكر أنّ المختارات
تضم «أشعاراً غير منشورة لشعراء من أصحاب الدواوين كابن درّاج»
[ص ١٠] .

وثمة أبيات وصفية وهم ابن عزيم في نسبتها لابن سعيد وهي:
[ص ٦٢] .

وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها وكلّ أرض بما في الحسن صنعاء
أغارها فضّة والمسك تربتها والحزّ روضتها والدرّ حصباء
لذاك يبسم فيها الروض من طرب والطير تشدو وللأغصان إصغاء

وتبعه المحقّق الفاضل في ذلك مع أنّ الأبيات شهيرة لابن سفر المريني
وقد وردت في نفع الطيب مرتين [٢٠٩/١ . ٢٢٧].

كما أنّ بعض المقطوعات التي لم يذكر ابن عزم صاحبها تركها المحقّق
من دون تخريج، وبعضها مشهور كالأبيات [ص ٧٣].

وكأتمّاء جاء النسيم مبشّراً للروض يخبره بطول بقاء
فكساه خلعة طيبه ورمى له بدراهم الأزهار رمي سخاء
وكأتمّاء احتقر الصنيع فبادرت للعذر عنه نعمة الوراق
والورد في شطّ الخليج كأنّه رمد ألمّ بمقلة زرقاء

فهذه الأبيات لأبي بحر صفوان بن إدريس التحيّبيّ وهي في النفع أيضاً
[٢٥٤ / ٦].

وثمة إشارات غير كافية كقوله عن الرنديّ إنّّه «قد جُمع شعره»
[ص ٤١]، ولم يشر أحد إلى الآن إلى نشر شعره. فضلاً عن هذا ثمة بعض
الكتب المخطوطة والمطبوعة والمجلات لم ترد في فهرس مصادره ومراجعته مثل
مخطوط البصائر والأبصار للبناهي، وكتاب نيل الابتهاج للتنبكّيّ ومجلة كلبية
الآداب بتطوان، بالإضافة إلى ذلك ثمة بعض الأخطاء المطبعية وما أشبهها
كالهمزات وألف ابن.

وقد طبع هذا الكتاب في الدار العربيّة للكتاب (ليبيا - تونس) سنة ١٩٩٣ مع أنّ المحقق ذكر في نهاية مقدّمته أنّه انتهى من تحقيقه في ٨ / ٤ / ١٩٨٧، وهذا يدلّنا على مدى الصعاب التي يواجهها كلّ باحث في رحلته مع كتابه أو بحثه ليرى النور^(٤).

وقد صدر الكتاب في حلّة أنيقة من الطباعة والإخراج مصدّراً بكلمة للدكتور أمين توفيق الطيبي الذي أسعده «التنويه بهذه الدراسة العلميّة الدقيقة لمختارات ابن عزيم الأندلسيّ وبمجهودات الباحث عبد الحميد الدؤوبية في مجال البحث العلميّ راجياً له كلّ التوفيق في جهوده»، وهو حقيق بمثل هذه الإشادة والتنويه وإيّ إذا كنت قد أشرت إلى بعض الهنات اليسيرة في هذا الكتاب الذي حقّق على مخطوطة وحيدة فهي لا تقدح في قيمة الكتاب وجهود محقّقه، وإيّ أنّي تنويه د. الطيبي بعمل الأستاذ الباحث عبد الحميد الهرامة في تحقيق هذا الكتاب الأندلسيّ النادر، وأشيد بسائر مؤلّفاته وتحقيقاته في مجال التراث الأندلسيّ.

(٤) كتب هذا البحث عام ١٩٩٥.